

الأـحدـ ١٠-٧-٢٠١١

١٤٠٩-الاقتصاد الأول، والإبداع دائمًا

تعتنة الوفد

"هل يصلح العطار ما أفسد الدهر؟" وقياساً عليه أقول "وهل يصلح "الثوار" ما أفسد القهـر؟" الإجابة عن السؤال الأول هي النفي المبدئي، للتبنيـه على تجنبـ الحلول التسـكينـية وإعطاء فرصةـ لـلـوقـتـ (حتـىـ فـيـ التـطـبـيـبـ النـفـسـيـ). أماـ الإجـابةـ عـلـىـ السـؤـالـ الثـانـيـ فـهـيـ بـالـإـهـابـ إـذـاـ أـحـسـنـاـ تـرـتـيبـ الـأـولـويـاتـ،ـ وأـيـضاـ إـذـاـ اـحـتـرـمـنـاـ عـاـمـلـ الزـمـنـ،ـ وـمـلـأـهـ بـاـ يـنـفـعـ،ـ فـتـكـونـ ثـورـةـ حـقـيقـيـةـ،ـ خـمـيـهاـ مـنـ الـقـرـاصـنةـ وـالـإـجـاهـاضـ.

ليكنـ الدـسـتـورـ "أـولـاـ"ـ أوـ "ثـانـيـاـ"ـ أوـ "أـخـرـاـ"ـ،ـ لـيـسـ هـذـهـ هـىـ الـقـضـيـةـ،ـ وـلـاـ يـنـبـغـىـ أـنـ تـكـونـ،ـ لـكـنـ مـنـ "عـلـىـ نـفـسـ بـصـيرـةـ"ـ،ـ يـعـرـفـ أـنـهـ مـهـمـاـ أـلـقـىـ مـعـاذـيـزـهـ،ـ فـهـوـ أـدـرـىـ بـمـاـ يـعـمـلـ كـمـاـ عـلـمـنـاـ رـبـ الـعـالـمـيـنـ.ـ التـركـيـزـ عـلـىـ الـوـقـوـفـ عـنـدـ الشـكـلـ هـكـذاـ يـبـرـرـ حـذـرـهـ مـنـ أـنـ يـُسـتـعـمـلـوـاـ كـمـجـرـدـ أـدـوـاتـ لـتـحـقـيقـ النـتـيـجـةـ الـمـرـسـومـ لـهـاـ،ـ وـهـمـ يـرـجـعـونـ الـهـدـفـ مـنـ وـرـاءـ هـذـاـ الـإـصـارـاـ عـلـىـ تـرـتـيبـ مـسـبـقـ لـغـرـضـ مـعـنـىـ،ـ لـيـكـنـ،ـ لـكـنـ ذـلـكـ لـاـ يـبـرـرـ تـوـقـفـ عـنـدـ هـذـهـ الـمـرـاحـلـ،ـ لـأـنـهـ لـوـ اـمـتـدـ يـهـ الـبـصـرـ قـلـيلـاـ،ـ لـوـجـدـوـ أـنـ الـدـيـقـراـطـيـةـ جـاهـزـ قـادـرـةـ عـلـىـ مـاـ تـشـاءـ وـقـتـمـاـ تـشـاءـ حـتـىـ لـوـ جـاءـ الدـسـتـورـ "أـولـاـ"ـ طـبـقـ الـأـصـلـ كـمـاـ يـرـيدـ الـمـطـالـبـوـنـ بـذـلـكـ،ـ فـيـانـ الـفـرـيقـ الـآخـرـ لـنـ يـعـدـ،ـ أـنـ يـحـقـقـ مـاـ يـرـيدـ لـاحـقاـ،ـ وـبـالـقـانـونـ،ـ وـبـالـدـسـتـورـ الـجـديـدـ.

لـقـدـ آنـ الـأـوـانـ أـنـ نـعـمـلـ عـلـىـ تـرـتـيبـ أـولـويـاتـنـاـ الـحـقـيقـيـةـ،ـ حـكـومـةـ وـشـعـبـاـ،ـ بـشـكـلـ مـسـنـوـلـ وـعـمـلـيـ،ـ خـنـ الـآنـ فـيـ مـوـاجـهـةـ أـرـزـاتـ "بـقـاءـ"ـ وـ"نـثـويـرـ"ـ وـ"تـحـديـاتـ"ـ "وـجـودـ"ـ،ـ الـثـورـةـ لـاـ تـكـونـ ثـورـةـ إـلاـ إـذـاـ وـاجـهـتـ مـسـنـوـلـيـتـهـاـ الـمـتـدـةـ إـلـىـ عـقـودـ أـوـ قـرـونـ،ـ كـلـ مـاـ جـرـىـ حـتـىـ الـآنـ هـوـ تـرـتـيبـ أـورـاقـ لـبـنـاءـ دـوـلـةـ،ـ تـتـبـيـخـ لـلـنـاسـ الـمـصـرـيـنـ (ـفـكـلـ النـاسـ)ـ بـنـاءـ حـضـارـةـ جـدـيـدةـ قـادـرـةـ عـلـىـ أـنـ تـسـهـمـ فـيـ بـنـاءـ الـإـنـسـانـ الـحـدـيثـ الـمـهـدـدـ بـالـفـنـاءـ بـتـصـرـفـاتـ قـوـىـ عـالـيـةـ وـخـلـقـيـةـ لـاـ تـنـظـرـ إـلـىـ لـمـوـقـعـ أـقـدـامـهـاـ،ـ حـيـثـ تـرـاكـمـ أـكـوـامـ الـمـالـ الـمـفـرـغـ مـنـ تـوـظـيفـهـ لـصـالـحـ النـاسـ،ـ وـهـوـ يـعـلـوـ فـيـ أـمـوـاجـ هـادـرـةـ تـكـادـ تـصـبـحـ طـوـفـانـاـ سـوـفـ يـغـرقـ الـأـقـرـبـ إـلـيـهـ فـاـلـقـرـبـ!!ـ

بـعـدـ أـكـثـرـ مـنـ مـائـةـ يـوـمـ عـلـىـ الـبـدـاـيـةـ،ـ عـلـيـنـاـ أـنـ نـسـارـعـ فـورـاـ وـمـنـ كـلـ مـوـقـعـ،ـ وـبـأـيـ تـرـتـيبـ،ـ أـولـاـ وـثـانـيـاـ وـثـالـثـاـ،ـ إـلـىـ

"بناء دولة" (قضاء عادل، وشرطة مسؤولة، وجيش قادر، وإبداع متعدد، وعلاقة بالطبيعة والمطلق إلى وجه الحق تعالى) وبناء أمة (احترام شامل، وفرص متساوية، وكرامة محفوظة وتقييم موضوعي، وتكافل المختلفين)، لتكون ثورة يمكنها التاريخ بأكثر من التصفيق، وأبلغ من حوارات التوك شو من مدرجات المفترجين.

مرور الوقت وفن نتحرك في الهوامش "حلك سر" لا يفيد حتى في الوفاء بمتطلبات "الضرورة"، وهو الذي ينبغي أن توفره حتى نتمكن من الانتقال إلى مستوى "الحرية" ، هذا هو الترتيب الأول بالعنابة . ليس معنى هذا أن نتنازل عن الحرية ولو مؤقتا، فكفانا تنازلات، لكن معناه أن علينا أن نعيش أولا، ثم تكون بشراء .

لا شك أن هناك مريرا للشك في سوء النوايا، وفي نفس الوقت توجد ميررات للعشم في حسنها، فكل فريق يصر على اختيار فرص أفضل في اللعب، وهو يحسب خطواته بما يحقق أهدافه، لكن لا ينبغي أن يكتفى بهذا الحق على فريق دون الآخر، من هنا جاءت مشروعية إثارة النقاش حول الوسيلة التي توصل هذا إلى مأربه دون ذاك، لكن علينا أن نذكر موجز دور الشطرنج وأنه ليس المهم من الذي ينقل النقلة الأولى، وإنما المهم من الذي ينهي الدور لصالحة .

دعونا نفترض أن هذه الحملة الشبابية الصفوية التنويرية المليئة بالحماس والمنطق قد بحثت فعلاً أن تقدم الدستور على الانتخابات، لكن يظل الدستور الذي أتى "أولاً" هو نتاج جهد لجنة تسمى "لجنة إعداد الدستور" التي قد لا تختلف كثيراً عن لجنة "تعديل الدستور" سابقاً، فنحن لا نعرف هل تعلم المسؤولون من تشكيل اللجنة الأولى طريقة افضل لتشكيل هذه اللجنة المقترحة أم لا، ومع ذلك لنفترض أن هذه اللجنة جاءت مثلثة لعموم الشعب المصري وكفاءاته، (الست أدرى كيف؟ بالتعيين؟ أم ماذا؟) فنحن لن نستورد أعضاء اللجنة من الأميركيين القتلة مائلياً ديمقراطيات التصدير، ولا من الصين (مع أنهم قادرون على تصدير ديمقراطية أرخص سعراً لكن غالباً أسرع تلفاً)، هذه اللجنة الجديدة لن تكون إلا لجنة جديدة، لا أكثر، ومهمها توسعنا في انتقاء أعضائها، ومهمها تنوعت هويات مثلينا فيها، ومهمها حرص أعضاؤها وتحفظوا ومحاربوا وزادوا وأعادوا، فإن رؤيتهم لن تتجاوز مرحلة نضجنا السياسي الراهن، وهذا وضع طبيعي، فالامر في نهاية النهاية يرجع إلى وعى عامة الناس، وعامة ناسنا لم يتعودوا إلا على حكم بوليسي قامع، أو حكم جيشي والدى مجتهد، يخاطئه كثيراً ويصبب أحياناً، لأن عمله الأساسي هو الدفاع عن المحدود وليس السياسة، هذا المستوى السياسي المتواضع الذي يعيشه أغلبنا، وقد اعتاد على التبعية وعلى استرخاء التفكير، هو هو الذي سيأتى لنا بنعى يمثلنا في الانتخابات النبابية التالية حق لو جاء الدستور أولاً، ومهمها بلغ إحكام مواد

هذا الدستور (أولاً)، فإن مجلس الشعب القاًد "ثانياً" حين يأتى عليه الدور لينقل نقلته على رقعة الشطرنج، أن يعارض حقه في أن يرقى "البيدق" (عسكري الشطرنج) إلى "فُرْز" (وزير أو ملكة)، ما دام استطاع أن يقطع رقعة الشطرنج من أولها إلى آخرها سليماً، بمعنى: إن من حق مجلس الشعب الجديد الذى جاء بعد وضع الدستور، وعلى أساسه، أن يقترح تعديلاً للدستور الذى أتى أولاً، حتى لو اضطره ذلك إلى أن يجري استفتاء جديداً، (خن وراءنا ماذا؟) وساعتها سوف يصبح الدستور ثالثاً، والأرجح أن هذا الاستفتاء الجديـد، لن يختلف عن سابقه، أو سابقيه، وهذا المجلس الذى أتى "ثانياً" يعلم جيداً أنه سوف يتم الاستفتاء ثالثاً، ليس على تعديل الدستور الذى جاء أولاً، وإنما على "بعـعـ" إلغـاءـ المادة الثانية أولاً، ثم على الدستور أخيراً، وهذا ليس ذنب المادة نفسها، فليس فيها ما يعوق حركة أي إصلاح أو بحول دون إبداع، ولكنها حين تستعمل من الظاهر، لتلتلوـيـ بـفعـلـ فـاعـلـ، وتحـمـ مـاـ لاـ تـعـنيـهـ الفـاظـهاـ، فإـنـهـ يـتـحـقـقـ منـ خـلـالـ ذـلـكـ ماـ تـعـقـقـ للـنـمـيـ فالـبـشـيرـ للـحـصـولـ عـلـىـ حـفـنـةـ أـصـوـاتـ اـنـتـخـابـيـةـ كـانـتـ هـيـ السـبـبـ فـيـ نـهـاـيـةـ النـهـاـيـةـ بـأـنـ يـنـفـصـلـ جـنـوبـ السـوـدـانـ بـالـسـلـامـةـ، حين يـجـدـ ذـلـكـ تـكـونـ الكـارـاثـةـ.

ليس معنى هذا أننا لسنا أهلاً للديمقراطية (كما يعايرونـاـ)، فدعـقـراـطـيـتهمـ أـخـبـرـ وأـخـطـرـ لأنـهـ تـقـيمـ دـوـلـةـ عـوـلـيـةـ دـيـنـيـةـ حـدـيـثـةـ تـحـتـ أـهـمـاءـ مـعـاصـرـةـ رـشـيقـةـ حـينـ يـفـرـضـونـ عـلـيـهـمـ - وـعـلـيـنـاـ هـذـاـ الـدـيـنـ "الـعـوـلـيـ الـجـدـيدـ" وـهـمـ يـعـيـنـونـ أـنـبـيـاءـهـ منـ سـدـنـةـ الـعـنـصـرـةـ وـحـوارـيـ الـقـوـىـ الـمـالـيـةـ الـكـانـيـبـالـيـةـ (ـأـكـلـةـ لـحـومـ الـبـشـرـ cannibalismـ) تـحـتـ اـسـمـ الـدـيـقـراـطـيـةـ.

الأـسـئـلةـ الـأـوـلـ بـالـطـرـحـ الـآنـ هـيـ أـشـلـ وـأـصـعـ، وـهـىـ عـنـ اـمـتـادـ وـتـآـزـرـ مـسـنـوـلـيـةـ ثـوـرـاتـ الـإـنـسـانـ الـمـعـاصـرـ فـيـ كـلـ مـكـانـ، تـلـكـ الـمـسـنـوـلـيـةـ الـتـيـ تـجـاـزـ أـسـئـلـةـ وـمـطـالـبـاتـ مـيـدانـ التـحرـيرـ، فـهـىـ تـجـاـزـ حـدـودـ مـصـرـ إـلـىـ كـلـ الـعـالـمـ، الـذـىـ كـانـ وـمـازـلـنـاـ دـائـماـ جـزـءـاـ مـنـهـ، روـادـاـ وـمـسـاـمـهـينـ.

الـعـالـمـ الـآنـ يـتـعـرـفـ لـأـخـطـرـ تـخـطـيـطـ يـهدـدـ بـفـنـاءـ هـذـاـ اـجـنـسـ الـعـظـيمـ الـمـسـمـىـ "الـبـشـرـ"، وـعـلـيـنـاـ أـنـ نـوـفـرـ إـبـدـاعـ وـوـقـتـ وـجـهـدـ كـلـ أـفـرـادـ وـمـهـاـعـاتـ وـشـعـوبـ هـذـاـ النـوـعـ الرـائـعـ مـنـ الـأـحـيـاءـ، لـيـسـخـرـوـهـاـ تـلـقـائـيـاـ لـلـحـفـاظـ عـلـىـ النـوـعـ وـعـلـىـ الـحـيـاةـ، وـهـذـاـ يـتـطـلـبـ أـلـاـ يـقـتـصـرـ تـفـكـيـرـنـاـ وـتـفـسـيـرـنـاـ عـلـىـ الـمـسـائـلـ وـالـمـشـاـكـلـ الـخـلـيـةـ، إـنـ لـابـدـ أـنـ يـمـتـدـ تـفـسـيـرـنـاـ لـيـفـحـصـ مـوـقـعـنـاـ مـنـ هـذـاـ الـمـخـطـطـ الـعـوـلـيـ الـمـدـفـرـ لـلـعـالـمـ الـذـىـ خـنـ جـزـءـ مـنـهـ.

أـغـلـبـ الـبـشـرـ الـآنـ مـعـرـضـونـ لـلـعـابـ إـلـعـامـيـةـ وـخـرـكـاتـ اـقـتـصـاديـةـ مـالـيـةـ عـالـيـةـ خـبـيـثـهـ تـعـرـفـ نـوـعـنـاـ كـلـهـ لـلـهـلـاـكـ، وـكـلـ هـذـاـ اـجـارـىـ عـلـىـ النـاـحـيـتـيـنـ لـيـسـ إـلـاـ أـعـرـافـ خـاطـرـ مـعـرـكـةـ التـهـيـدـ بـالـانـقـرافـ فـيـ مـقـابـلـ مـقاـومـتـهـاـ: الـحـرـوبـ الـاسـتـبـاقـيـةـ، وـالـإـبـادـةـ الـعـرـقـيـةـ، وـالـثـورـاتـ الـزـائـفـةـ، عـلـىـ نـاحـيـةـ، فـيـ مـقـابـلـ الـثـورـاتـ الـحـقـيقـيـةـ، وـالـإـبـدـاعـ الـتـطـوـرـيـ وـتـكـافـلـ الـشـعـوبـ، عـلـىـ النـاـحـيـةـ الـأـخـرـىـ، مـعـ التـذـكـرـهـ بـأـنـ الـمـعـارـكـ تـمـتـ وـتـمـبـحـ أـخـطـرـ وـأـسـرـعـ حـينـ يـسـتـعـملـ كـلـ مـنـ الـفـرـيقـيـنـ أـحـدـ الـتـكـنـوـلـوـجـيـاـ لـتـحـقـيقـ أـغـرـاضـهـ.

ليكن الدستور أولاً، ولتأتى الانتخابات لاحقاً، أو يتعدل الدستور ثالثاً، أو العكس، لكن تظل مسؤوليتنا في نهاية النهاية، أن يصلح "الثوار ما افسد الظاهر"، وأن يظل الاقتصاد أولاً والإبداع دائماً هما الغاية والوسيلة معاً طول الوقت.

ولهذا حديث آخر.